ولكن لم يكن من الصعب بكل التناقضات التي يحملها هذا الفكر ، ان ينقلب على يد الرجعية الى معاني التفرد والاستعلاء القومي ، حتى لقب « بالفيلسوف التيوتوني » ٠

ونتابع بانوراما افكار الرومانسية الالمانية ، من الرسالة السامية للامة الالمانية ، والاصالة اللغوية والثقافية والاخلاقية ، حتى تنتهي الى معاني الاستعلاء والتفرد العرقي والعنصري ودعوات العنف والقوة ٠

فها هو فردريك شليجل (٢٤) (١٧٧٢ ـ ١٨٢٩) يعتبر الذكريات القومية التي تعادل روح الشعب ، هي مفتاح الخلود التاريخي ٠ والشعوب والامم التي لها « ذكريات قومية عظيمة » هي وحدها التي خلدت على مر التاريخ « والتاريخ هو الوعي الذاتي للامة » او « وعي الامة بذاتها » ، ولكنه يؤكد ان الفكرة الالمانية ليست مجرد ماض فحسب بل مثل للمستقبل وكان شليجل في البداية داعية جمهوريا قويا ، ثم تحول ليصبح كاثوليكيا محافظا ، من ذلك الفريق الذي يناصر النمسا وهو الاشد محافظة ، ويحلم بعودة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، رمز الروح الالمانية ٠

اما ادم مولر فكانت تربطه باليونكرز الرجعيين وشائج قوية ، واصبح اداة في يد مترنيخ ، وقد تحول الى الكاثوليكية واكتسبت افكاره السياسية مسحة صوفية ، وقد تصور الامة في اطار المفهوم الحيوي والصوفي ، تناسقا مقدسا وتفاعلا متبادلا بين المصالح الخاصة ، وحلقة تربط بين الفرد والانسانية وصفة التفرد هي القيمة العظمى للامة وكان يرى في الحرب وسيلة لا غنى عنها لتربية الامة ونموها وكان الامل الذي يحرك مولر هو قيام فيدرال عظيم يجمع الشعوب الاوروبية تحت الزعامة الالمانية (٢٥) وقد رأى في الزراعة تحقيقا للمبادىء المرسومة ، في حين رأي في حركة الاصلاح الديني والاستنارة ، والتصنيع والرأسمالية ، والثورة الفرنسية كلها نتاج الروح الرومانية الكئيبة ٠

ثم جاءت فلسفة شوبنهور لتعكس موجة التشاؤم السائدة بعد هزيمة ثورة سنة ١٨٤٨ ٠ واكتسبت فلسفته شعبية واسعة في اجواء اليأس والتراجع ، وبدت له الدنيا كابوسا كئيبا لا يحكمه العقل بل الغريزة العمياء الجشعة ، وهي ارادة الحياة ٠

وكان نيتشه هو الوريث الاخير للرومنسية على غير ارادته ، وكان هو ايضا يعتقد ان العالم لا يسيره العقل بل الارادة ، وهي ارادة القوة ويبدو انه استوحى الفكرة من مسيرة الجيوش الالمانية الى ساحات القتال في حرب ١٨٧٠ وهو يحتقر النفعية الانجليزية ، ومعها الديموقراطية الليبرالية ٠ فالانسان لا يطلب السعادة بل القوة ويحب القسوة ، اما المسيحية واخلاقياتها فهي تخفي